

الغرب يجدد نفسه بعد كل حرب وأزمة، وبعد كل إنذار بالسقوط من خلال نظامه الليبرالي المنفتح والمتقبل لكل الخيارات والاحتمالات الحضارية، إن تطرف في التحرر نهضت قوى المحافظة لتوازن الكفة، وإن زاد في الاشتراكية نهضت قوى الرأسمالية لتعدل الميزان، وإن انحرف لداروين أو لماركس أو لسارتر نهضت قوى الكنيسة وقوى الإيمان المتحرر الآخر لترد العافية للجدلية الحضارية التي تقوم عليها الليبرالية الغربية. والأهم من ذلك أن الانتقال بين هذه الخيارات في المجتمع الليبرالي، يتم بالحوار والتفاهم والاحتكام للرأي العام، رغم كل السلبيات المصاحبة لذلك، دون عنف دموي، وقهر وحروب أهلية، أو بالحد الأدنى مما يفرضه الصراع الاجتماعي، وأنا أتحدث هنا عن المجتمع الغربي الليبرالي في الداخل، وليس عن ظاهرة الاستعمار الغربي وموقف الحضارة الغربية من الشعوب الأخرى إذ علينا أن ندرك أن الغرب ليس جمعية خيرية توزع الحقوق العادلة في مجلس الأمن، لكنه قوة صدامية متناقضة ذات خصائص معينة تُخدم نفسها، لنعرف بالتالي كيف نخدم أنفسنا. وهذه الإشارة لا تعني تقليد الغرب فيما يذهب إليه وإنما في معرفة قوانين ذاتية القوة التي وفرها الغرب لنفسه حتى نعرف ذاتية قوتنا لأنفسنا من عمق تراثنا وعقيدتنا وهويتنا الإسلامية.

وهنا لا بد من التذكير بقانون المواجهة الحضارية ومعادلتها السليمة. في مثل هذه المواجهات السليمة تتصلب الحضارة المدافعة عسكرياً وسياسياً واقتصادياً لترد هجوم الحضارة المعتدية، وتقف على قدميها، وتستعيد ثقمتها بنفسها في ساحة المواجهة الاستراتيجية ضد الخصم، وفي الوقت ذاته، باليد الأخرى، تنظر في معطيات الحضارة الغازية فتفهم وتنقد وتغربل وتقرر قبول ما تقبل ورفض ما ترفض، وكلما زادت ثقمتها بنفسها في ساحة المواجهة زادت قدرتها على الاستيعاب الحضاري دون عقدة نقص. هكذا فعلت اليابان وروسيا والصين في ساحة المواجهة مع الحضارة الغربية: صلابة ضد الخصم في ساحة ذلك الصراع، تصاحبها مرونة وتفهم تجاه عناصر القوة الحضارية لدى الخصم المتفوق لفهمها واستيعابها واستخدامها لصالح الذات، وفي تاريخ الإسلام نجد القانون ذاته، فالاسلام أثبت قوته ضد القوى المنافسة في حين أقدم المسلمون على حضارات الإغريق